# الفصل التاسع

## الثورة المهدية في خطاب العروة الوثقى

بكري خليل(*)

### مدخل

انطوت اللحظة التاريخية التي شهدت انبثاق جمعية «العروة الوثقى» وانتصار الثورة المهدية في السودان، على لقاء حميم بين تعبيرين نبيلين للفعالية النهضوية التحررية بملامحها الفكرية التي مثلها تيار الإصلاح، والمقاومة الوطنية التي تمثلت في الثورة المهدية.

وليس مصادفة أن تكون لمجلة **العروة الوثقى** التي أصدرها الأفغاني ومحمد عبده في باريس(١)، قراءتها العميقة للمبادرة الشعبية التي أطلقها وقادها محمد أحمد المهدي ردّاً على الهجمة الاستعمارية الحديثة وتحرير السودان تحت راية الخلاص المهدوي، ووعوده لاجتثاث الظلم والاستبداد وإحياء الدين.

وحينما صدرت **العروة الوثقى** لسان حال النخب الإصلاحية وهي تحمل عصا الترحال بعيداً عن الشرق، ابتداء من آذار/ مارس عام ١٨٨٤ حتّى تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، كانت سارية المهدية قد ارتفعت فوق جميع الأراضي السودانية تقريباً، ودقت قواتها أبواب العاصمة السودانية ـ الخرطوم ـ والتي فتحتها في كانون الثاني/ يناير ١٨٨٥(٢).

---

(*) قسم الفلسفة، كلية الآداب جامعة النيلين ـ السودان.

(١) عبد المتعال الصعيدي، **المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر، ١٠٠ هـ ـ ١٣٧٠ هـ** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٥١)، ص ٤٩٠ ـ ٤٩٥ و٥٣٠ ـ ٥٣٨.

(٢) انظر: حسن أحمد إبراهيم، **تاريخ السودان الحديث، ١٨٢١ ـ ١٩٥٦** (الخرطوم: دار نشر جامعة الخرطوم، ١٩٧٦)، ص ٥٠ ـ ٦٧.

لقد كانت المهدية في ظلّ أوضاع الربع الأخير من القرن التاسع عشر دليلاً على عودة الروح إلى ذلك الواقع المرير الذي أوشك على الاستسلام للشك والقنوط، لفرط ما توالى على منطقتنا من نوازل وإخفاقات في جمع الكلمة ومقارعة المهددات الماثلة.

ولم يكن اهتمام **العروة الوثقى** مجرد انفعال بالأحداث أو تجاوباً عفوياً مع المقاومة المتفجرة للتمدد الاستعماري، وإنّما كان اتصالاً واعياً معها، اجتمعت له سمات الخطاب التعبوي لمشروع التحرير والإصلاح الذي نادى به رواد النهضة(٣).

وشقت الموضوعات المتصلة بالثورة المهدية طريقها إلى **العروة الوثقى** حتّى أصبحت محوراً لتعليقاتها وتغطياتها الإخبارية، ذلك أن القائمين على إصدارها قد رأوا في الثورة المهدية معقد رجاء ومخاضاً حقيقياً لاستنزاف بريطانيا ورد سياستها في تمزيق الدولة العثمانية إلى أعقابها، تلك السياسة التي هدفت إلى فرض الحماية على مصر وفصلها عن السودان، بعد أن فرضت سياسة إخلاء السودان على الحكم في مصر(٤).

ويرمي هذا البحث إلى دراسة خطاب **العروة الوثقى** بشأن المهدية ومميزاته، عن طريق ربطه بخلفيته التاريخية وما أحاطها من تقدير أسباب الثورة المهدية وحدودها، ومشكلات تفسير طبيعتها وآفاقها، إلى جانب دلالات الخطاب التعبوي السياسية والفكرية وإشكاليته في التعامل مع مسألة الثورة المهدية.

## أولاً: الثورة المهدية وموقعها في تيار المقاومة، وقائع وفرضيات

شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حدثين مهمين في مصر والسودان، هما الثورة العرابية والثورة المهدية على التوالي. فلقد تفجرت الثورة المهدية في ظروف كانت فيها حركة عرابي تصارع السلطة الخديوية وتقدم مطالب الشعب المصري في الإصلاح السياسي ومجابهة خطر التدخل الأجنبي رافعةً شعار مصر للمصريين.

وكانت آثار التدهور الاقتصادي والفساد السياسي والإداري واضحة وعميقة، وأدت إلى انتظام المقاومة التي عبرت عنها المؤسسة العسكرية المصرية وبإسناد من الشعب ضدّ الحكم وسياسته الممالئة للاستعمار.

---

(٣) للمزيد، انظر: محمد أحمد عبد القادر، **قضايا الفكر الإسلامي الحديث بين الأصالة والمعاصرة** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧)، ص ٢٢٠ ـ ٢٥١ و٢٧٨ ـ ٣١٥.

(٤) Mekki Abbas, *The Sudan Question; the Dispute over the Anglo-Egyptian Condominium, 1884-1951* (London: Faber and Faber, 1951), pp. 35-39.

غير أن الثورة العرابية قد انتهت بعد معارك مشهودة، بالاحتلال البريطاني ودخول مصر مرحلة جديدة، انقلبت فيها الأوضاع على الآمال الوطنية في التحرر والسيادة.

أما في السودان، فقد انبثقت الحركة المهدية من معاناة عامة بفعل مظالم الإدارات المتعاقبة وسوء سياساتها التي أضرت بالسواد الأعظم من السودانيين، الذين شعروا بمرارة الحكم الخديوي في السودان والذي يطلق عليه اسم الحكم التركي أو «التركية السابقة» في التاريخ الشفاهي والمكتوب في السودان.

وخرجت الثورة المهدية موسومة بسمات بيئتها الثقافية والاجتماعية، فكانت شعبية في تكوينها، ودينية وطنية في طابعها، واتبعت أسلوب نشر الدعوة وكسب المؤيّدين، ودارت حول فكرة المهدية في الإسلام التي تظهر في آخر الزمان حتّى تملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً[٥].

وهكذا تفاوتت إفصاحات الأزمة العامة التي كانت تمرّ بالحكم في مركزه في مصر وامتداده في السودان. ومن هنا فإن هناك صلة عضوية بين ما دار في شقي وادي النيل إبان تلك الفترة، وما تداعى فيها من مواقف لدى محرري **العروة الوثقى** استناداً لعلاقتهما بما كان يحدث في الساحتين المصرية والسودانية، وكذلك بحكم انشغالهما بقضايا الإصلاح والتحرر.

وفي تلك الظروف المضطربة نجد أن أحمد عرابي قد رفض الزجّ بمزيد من الجنود في السودان لضرب الثورة المهدية، وكان إذ ذاك يتولى نظارة الجهادية (وزارة الدفاع). وقد تذرع عرابي بأوضاع مصر التي لا تسمح بذلك[٦]. وبعد نفيه إلى خارج مصر، أوضح عرابي تضامنه مع الثورة المهدية[٧].

أما جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فكانا لهما رأيهما الواضح في مجريات الوضع في السودان بعد الثورة المهدية، فقد رفض الأفغاني العرض البريطاني بتولي عرش السودان، إذ دعت الأفغاني إلى زيارة لندن لتسأله عن رأيه في حركة المهدي والحصول على فتوى شرعية تناهض الثورة المهدية، ثُمّ عرضت عليه عرش السودان. وعندما التقاه اللورد سالسبري، رئيس وزراء بريطانيا، قال للأفغاني «تصورنا أن

---

(٥) مكي شبيكة، **تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي**، ط ٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠)، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٦.

(٦) مكي شبيكة، **السودان عبر القرون** (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٧) عبد الودود إبراهيم شلبي، **الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته**، المكتبة الإفريقية؛ ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨)، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد لإصلاحات بريطانية فيه»، فأجابه الأفغاني «إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتّى تتصرف في عرشه»[٨].

ويمكن مما سبق، استخلاص بعض النتائج المتبادلة بين الوضع في السودان وتصفية الثورة العرابية، وما تبلور لدى الأفغاني ومحمد عبده من فهم للمخطط البريطاني ومغزى القضية السودانية بالنسبة إلى الكفاح التحرري، كما يلي:

١ ـ لقد كان فرض الحماية على مصر في أعقاب الثورة العرابية وتقلد بريطانيا دور التوجيه المباشر للأوضاع في مصر، من أكثر النتائج أهمية في تاريخ مصر الحديث. وكان إخلاء السودان تمهيداً لاحتلاله من قبل بريطانيا من الآثار المباشرة للسيطرة البريطانية.

وميدانياً فإن إضعاف الجيش المصري وإقصاء قياداته الوطنية ونفي جزء منهم إلى السودان، وزجهم في المعارك المناهضة للثورة المهدية تحت قيادات أجنبية، قد ساعد على انفراط الوضع العسكري في السودان وزعزعة معنوياته، ما أسفر عن اضطراب الموقف القتالي والهزائم المتلاحقة التي انتهت إلى قيام الدولة المهدية في السودان من عام ١٨٨٥ ـ ١٨٩٨م.

٢ ـ بعد فشل الثورة العرابية وبزوغ المهدية، أدرك الأفغاني ومحمد عبده أن من شأن المهدية بما لها من مقومات أن تستمر وتنجز ما لم تقدر عليه الثورة العرابية في مقاومة المستعمرين. لذا فقد راهنا عليها ونظرا إلى تطورات الوضع في السودان بعين الأمل والتفاؤل، كما نظرا إليها كحالة جديدة لها وقعها الخاص في تحريك طاقات النضال الوطني في العالم الإسلامي ولا سيما في مصر والهند اللتان كانت ترزحان تحت النفوذ الاستعماري البريطاني.

٣ ـ ارتكز تقويم الثورة المهدية لدى الأفغاني ومحمد عبده على طابعها الوطني التحرري بصرف النظر عن مزاجها الدينيّ وحسها السلفي. أما بالنسبة إلى المقاومة العامة ضدّ بريطانيا في الشرق والعالم الإسلامي، فقد اشترط هؤلاء الرواد استمرارها وتصاعدها بشمولها وتكاملها، بحيث تغطي جميع البلاد التي وطأتها بريطانيا، ومن دون ذلك ستتمكن بريطانيا وتنفرد. وهكذا فإن خطاب **العروة الوثقى** قد حفل بتوصيفات مؤتلفة أحياناً ومختلفة أحياناً أخرى لواقع الثورة المهدية، كما إنَّ عدم

---

(٨) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى** (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٥٧)، ص ٣٥.

التيقن من مآلها قد انعكس في شكل إعجاب وتخوف، ومناصرة ومحاذرة، ما يضع ذلك الخطاب في موضع مساءلة وتدقيق عن فحواه ومقاصده.

٤ ـ وضعت **العروة الوثقى** حساب القدرات الجماهيرية والعمق الثقافي والجيوسياسي للعالم الإسلامي في مواجهة إمكانيات الإمبراطورية البريطانية العسكرية والصناعية، ورأت أن توظيف العوامل المشار إليها فضلاً عن وجود الدولة العثمانية والتنافس بين القوى العالمية الغربية ولا سيما روسيا وفرنسا من جهة وإنكلترا بين جهة أخرى، سوف يقلب الميزان لصالح شعوب الشرق. وضمن هذا التصور تأتي الثورة المهدية في صالح النهوض بحركة الكفاح ضدّ الاستعمار ودليلاً على إمكانية اندلاع المقاومة.

فإلى أي حدّ جاءت الوقائع السابقة متسقة مع ما افترضه الخطاب من قدرات الإقلاع وآفاق اليقظة والمخاطرة التي شكلتها الثورة والتحديات التي ترتبت عنها في ذلك المنعطف؟

## ثانياً: في تقدير أسباب الثورة المهدية وحدودها ودورها

وفي معرض بحثها عن أسباب الثورة المهدية، ترى **العروة الوثقى** «أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها وزحف الأغراب إليها»[٩]، ولهذا فهي ترى أن دخول الجيش البريطاني إلى مصر والسودان من أعظم الأسباب التي أدت إلى الثورة.

إن العدوان الخارجي يظل المحرك الأساسي للمقاومة، إذ إنَّ الوجود البريطاني الذي يتحين الفرص لبسط السيطرة على مصر بدءاً من اقتطاع السودان، هو المحرك الأقوى للأحداث بحسب المقالات المواكبة لتوالي المعارك الظافرة للثورة المهدية حتّى حصارها للخرطوم.

كما استقرأت **العروة الوثقى** تسلسل الخُطى البريطانية لامتصاص قوة اندفاع الثورة المهدية بالتراجع إلى حدود مصر الجنوبية من جهة، ولتركيز وجودها في مصر، وفي الوقت نفسه تعزيز الدفاع عن الساحل الشرقي للسودان، لتأمين طريق المواصلات في البحر الأحمر كمنفذ للهند وأعالي البحار من جهة أخرى، فإن كانت المبررات الوطنية والاستراتيجية جلية في ما أثارته تلك المجلة بخصوص الثورة المهدية، فإنها قد أكدت دواعي الإيمان الدينيّ والوطني التي توجب مقاومة العدو الغازي.

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٧.

والمثال على ما نقول، تلك المقالة التي أفردتها بعنوان «زلزال الإنكليز في السودان»، وفيها أن «جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الإنكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والإمكان، قياماً بما يوجبه الدين والوطن، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني. فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كُلّ ملة وكُلّ قطر من أقطار الأرض تطالب كُلّ شخص بصيانة وطنه، والذود عن حوزته»[١٠].

وترد **العروة الوثقى** على المزاعم التي ذهبت إلى أن غاية الثورة المهدية هي السلطة وتمكين قائدها لحكم السودان، فترى أن تلك المزاعم هي أماني بريطانيا التي لن تتحقق، لأن الدعوة المهدية لا تقف عند غاية، ولا تقتنع بملك، وإنّما تريد بسط نفسها في أقطار العالم وإحياء الأوامر الإلهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي المهدي، نيابة عنه في تبليغها وصيانتها «إن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك ولا طلب حقّ له في الإمارة كان يرثه عن آبائه وإنّما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية»[١١]، وهكذا تنبأت سلفاً بفشل مسعى غوردون باشا[١٢]، الحاكم الإنكليزي ـ الذي انتدب خصيصاً إلى السودان لإخماد الثورة المهدية ـ الذي عرض على المهدي أن يكون ملكاً على إقليم كردفان.

وتساءلت المجلة عن قناعة صاحب هذه الدعوة في أن يقبل مثل هذا اللقب بعد الفتوحات الكبيرة واستيلاء الثورة على أرجاء البلاد من دون إذن غوردون. وترى أنّه قد «يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدوية وموقعها من قلوب المسلمين»[١٣].

وتبدي **العروة الوثقى** استغرابها أكثر من هذا في مجرد تعيين غوردون من قبل الحكومة البريطانية التي «ذهلت عن أن ثورة دينية لا يمكن إطفاؤها بيدّ من يخالف الثائرين ديناً وشكلاً ولغة»[١٤].

العواطف الدينيّة والتطلعات الوطنية فضلاً عن ما تحقق من انتصارات،

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(١٢) هو شارلز جورج غوردون، اسكتلندي، عمل في الصين والسودان واستقال عام ١٨٧٧م، ثُمّ عاد إلى السودان حاكماً عاماً عام ١٨٨٤م وأعلن سياسة الإخلاء وحوصر في الخرطوم وقتل عند فتحها في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٨٥ على يد المهدية.

(١٣) الأفغاني وعبده، المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

أصبحت تحرك القلوب، وتوقظ الهمم وتحيي الآمال في الحرية وتنشر الدعوة في أنحاء العالم الإسلامي.

وعلى هذا فإنه لا يستغرب أن يتجاوب المسلمون مع المهدي وأن تمازج «نفثاته أفئدة العرب في فيافي طرابلس أو قاربت، وأن هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب»[١٥].

وتنعقد تقديرات **العروة الوثقى** على أن ما حققه المهدي جعل أمره يشمخ وخطره يعظم فلا عائق أمامه في سيره، والقوى تجتمع إليه يوماً بعد يوم، فإذا ما تمادت بريطانيا في غيها، فإن علماء المسلمين والأزهر يمكنهم موافقة المهدي، وذلك يكفي لإيقاد الفتنة في أرجاء العالم الإسلامي والاعتقاد بالمدعي والتفاني تحت رايته! عندها لا تستطيع بريطانيا أن تتصرف في أهواء القلوب، ولا في حركات الأفكار، كما إنَّ أسلحتها الجديدة لا تبدد جحافل الخواطر[١٦].

وعليه فإن المجلة تتوخى من تجسيم هذه الاحتمالات أن تربط بين انهيار الوضع الاستعماري وبين أطراد المهدية، إما بالعمل المباشر الذي أخذت بشائره تتوالى في السودان ميدانياً، أو بما لهذه الثورة من أصداء تلقائية من شأنها أن تنتقل إلى مصر والبلدان العربية المجاورة، أو بتأييد منظم ومقصود يتولاه قادة الرأي ومشايخ الدين في مصر، ومن ثُمّ في العالم الإسلامي مناصرة للمهدية.

الخطاب يحمل تهديداً بتدهور الأحوال ما لم تراجع الدولة الاستعمارية حساباتها وتثوب إلى رشدها وتقر بتسليم ذوي الشأن في الدولة العثمانية وفي مصر مقاليد الأمور، ورفع يدها عن مصر والسودان.

ويلوح من خلال أدب المقاومة الذي تكشف عنه **العروة الوثقى** نوع من التحريض المبطن، لكي تأخذ تلك النخب دورها في تأجيج نار الثورة التي تعتمل في النفوس، فثمة مقدمات لأن يوجه المهدي جيوشه الكثيفة إلى حدود مصر العليا «وربما يغلب على الظن أن يفعل ذلك، فإن لم يفعل، فهي شعلة الثورة تسري بطبعها وتضطره إلى اقتفاء أثرها[١٧].

إن هذه التوقعات لم تأتِ من فراغ، وإنَّما نبعت من الإخفاقات التي أصابت بريطانيا في السودان واهتزاز صورتها، ما يرفع من احتمالات تبدل الأحوال في مصر

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

فلا تبقى على هدوئها، إذ «يغلب الظن بأن ما لهم من سرعة الاعتقاد بالظاهر خصوصاً إن كان قائماً بدعوة دينية وما ضاقت به صدورهم من الاستبداد الإنكليزي، وما ذاقوه من آلام الفقر والفاقة والذل والهوان من نحو سنتين، وما يتوقعونه من رزايا دينهم ودنياهم في المستقبل إذا رسخت قدم الإنكليز في مصر، كُلّ هذا يبعثهم على تقبل دعوة الداعي بقبولٍ حسن وانحيازهم إليه»[١٨].

وإزاء استفحال عدوى الثورة المهدية وشيوع دعواها، فإن **العروة الوثقى** قد توقعت مكيدة بريطانية لإشعال حرب دينية بين السودان والحبشة، بعد أن لمّحت بعض الصحف الأوروبية إلى ذلك، فهي تحذر بريطانيا، وترى أن هذا أمر لا يعود إليها بالفائدة لأنه يثير نار التعصب ويفتح عليها جبهة واسعة من قبل المسلمين الذين هي في غنى عن استعدائهم، فضلاً عن أن مثل هذه الحرب تخالف أحكام المدنية التي تدّعي الحرص عليها، فاندلاع حرب صليبية سوف تسوّد «وجوه الكاذبين الذين يزعمون أنهم دعاة الإنسانية ورعاة التمدن»[١٩].

وتخاطب المجلة بريطانيا بلغة المصالح أيضاً، فإن كانت حريصة لصون طريق الهند، فمن الأوجب لها أن تبحث عن من يقومون بهذا، فتفوض بريطانيا الأمر للدولة العثمانية ولأولي العزم من المصريين وذلك أدعى إلى مقاومة المخاطر التي يمثلها سقوط الخرطوم في يد المهدي والذي سيكون له دوي عظيم يؤدي إلى تغيير الأوضاع في البلاد الشرقية[٢٠].

وهنا تعود **العروة الوثقى** لإسداء النصيحة وتعليل النفس بالتمنيات بالقول «نعم لو أذعن الإنكليز بما للدولة العثمانية من الحقّ وتركوا لها بلادها»، «وفوضوا إليها إعادة الراحة فيها وإخماد فتنة السودان، فلا نخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض إليها، بل هو ما تتمناه وتسعى إليه، ولعل الحوادث تلجئ دولة بريطانيا إلى مثل ما لجأ إليه غوردون بتسليم الأمر لمالكه»[٢١]، أي للدولة العثمانية، كما سلم غوردون بولاية المهدي لكردفان السودانية[٢٢].

تلك القراءة للأحداث الجارية لم تعدّ تخمن عجز بريطانيا عن اجتثاث الثورة المهدية من جذورها، بل تقطع جازمة من أنها فشلت في هذا المسعى، وأن مثل هذه

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٢٢) شبيكة، **السودان عبر القرون**، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

الثورة عصية إلا لرجال من عظماء المسلمين. فهم وحدهم القادرون على إطفاء نيرانها الملتهبة»[٢٣].

ويتكرر هذا الحلّ في العديد من فقرات **العروة الوثقى** التي تدعم حجتها بمطالبة بعض قادة الرأي في بريطانيا نفسها بإشراك الجيش العثماني في إخماد الثورة، لأن مثل هذه «الفتن» لا يدفع غائلتها إلا المسلمون، واشتداد مثل هذا الخطب بفعل التعاطف وميل الأهالي يجعل من الصعوبة على حكومة غير إسلامية أن تقارعها.

ومما سبق ذكره، يتضح لنا كثافة الخطاب التبشيري بإمكانية ظهور انتفاضات شعبية أخرى على غرار ما حدث في السودان، فهناك صورة ملموسة لا يستغرب تكرارها في العالم الإسلامي.

فهل كان الأفغاني وعبده يخاطران بالرجاء بناء على ثقتهم في أصالة الأمة؟ ثُمّ ما هي درجة دقتهما في فحص تلك الأوضاع والنفاذ إلى آفاق تطورها، وإلى أي حدّ وضعا الأمور في أحجامها الحقيقية، وما هي الجوانب البائنة والمستترة التي لم تعرها **العروة الوثقى** اهتمامها، أو فات عليها تناولها وإبرازها؟

تلك أسئلة سوف نحاول الإجابة عنها.

## ثالثاً: نواقص التفسير التاريخي للثورة المهدية، الأسباب والنتائج

كان الرجال الواقفين خلف إصدار **العروة الوثقى** من أقدر العقول على استجلاء ما يدور في زمانهم، وفوق هذا فقد كانوا حداة ركب يتجه إلى تحقيق مشروع واضح المعالم، فقد شخّص يراعُهم موجبات مقاومة التغلغل الاستعماري، وحدد عوامل القوة التي تمتلكها وكذا مواطن الضعف التي تعاني منها الحالة الاستعمارية، إلى جانب رؤية تلك العناصر ضمن حركة التفاعلات الجارية في العالم الإسلامي وانشداده إلى أصوات الرفض، ورغبته في التغيير واسترداد كرامته المطعونة وسيادته المفقودة.

غير أن هناك ظلالاً ما زالت تغطي رؤيتهم وتفسيراتهم لمشكلات ذلك الواقع، كما إنَّ هناك قصوراً ظلّ يلازم تحليلاتهم في هذا الشأن أو ذلك، بخصوص العلاقات الدولية وتوازنات القوى العالمية، انعكست على الخلاصات التي توصلوا إليها بشأن الثورة المهدية، ومن المهم تثبتها.

---

(٢٣) الأفغاني وعبده، المصدر نفسه، ص ١٨٩.

إن الاتجاهات العامة التي تسود مطالعات **العروة الوثقى** للمعطيات التاريخية للسودان ومحيطه الإقليمي، تكشف لنا استنتاجات في النواحي التالية:

**على صعيد الوضع الداخلي في السودان**، أعادت **العروة الوثقى** الثورة المهدية إلى الغزو الأجنبي لمصر وامتداداته في السودان، والتي تسربت في طواقم الإدارات والقيادات العسكرية التي شغلت مواقع مهمة في الجيش والخدمة المدنية في السودان من البريطانيين وغيرهم من الغربيين.

هذا الاختراق كان يرمز إلى عمق أزمة الحكم في مصر وكذلك هشاشة ممثليه في السودان، كما أزاح الستار عن هشاشة أوضاع الدولة العثمانية. لكن إيحاءات ذلك على المشاعر الدينيّة فاقت رمزيتها السياسية، إذ أصبحت هذه الواجهات دليلاً على فقدان السلطة وولاية الأمر لأية مشروعية أو سند إسلامي، وبالتالي أباح حضورها كُلّ مظاهر العصيان.

ولكن العنصر المهم الذي لم تؤكد عليه **العروة الوثقى** هو ما لحق بالسودانيين من أضرار ومظالم جراء الفساد والضرائب الباهظة التي فرضت على السواد الأعظم من الشعب، والتنكيل الذي مارسته السلطة الخديوية في تحصيلها ومعاقبة المتخلفين عن دفعها، إلى جانب تردي الأوضاع المعيشية وتفشي مظاهر الجهل وظهور البدع والانحرافات الأخلاقية والتي بدأت تؤثر على المجتمع ونظام قيمه.

وقد ساعدت هذه العوامل على نشوء تيار من السخط والتذمر، وفتحت الباب أمام الدجل والشعوذة والتثقيف الخرافي، ما خلق مناخاً وجد بظهور المهدي لحظة تاريخية نادرة للتعبير عن رفض واقع الحال واستجماع روح المقاومة لأمراض المجتمع ولحكامه على حدٍ سواء.

وبطبيعة الحال فإن التغاضي عن الخوض في الواقع السياسي والاجتماعي الداخلي للسودان، والمبررات المباشرة التي أدت إلى الثورة، لم يكن ناتجاً عن نقص في معلومات **العروة الوثقى** أو عدم معرفتها بخلفية الأوضاع التي حملت جرثومة الثورة.

فتوجيه النقد والتصريح بأخطاء السلطة الخديوية في السودان، كان يتعارض مع متطلبات الخطاب السياسي الذي دار على محاور إعلان التوحد حول الدولة العثمانية رمز وحدة المسلمين ومحط رجائهم في ردّ الهجمة الاستعمارية بحسب القائمين على **العروة الوثقى**.

ولم يشأ هؤلاء أن يمسوا بأيديولوجيا المقاومة أو يخلوا بمفاهيمها القائمة أصلاً بالقبول بمبدأ ولاية الأستانة على المسلمين. وكان هذا العائق التعبوي قد فوّت على

**العروة الوثقى** التطرق إلى أمر مهم وذي مغزى في خطاب الثورة المهدية، وهو اعتبار الخصم هو «الترك» من دون المصريين، وذلك يعكس استيعاب المهدية لطبيعة النظام الحاكم في مصر وانفصاله عن شعبها.

وما لا شكّ فيه، فإن الأمل الذي كان يداعب أذهان الإصلاحيين بتفعيل دور الدولة العثمانية والالتفاف من حول فكرة الجامعة الإسلامية، كان يقيم نوعاً من التمييز بين الحاجة إلى الحرية وبين الانفكاك من النظام السياسي الإقطاعي الذي بدأ عده العكسي منذُ مدة طويلة.

ورمى بموجب رؤيته تلك إلى رص الصفوف من دون التفات إلى أي غرض آخر، سوى التصدي للتحدي الغربي الاستعماري، إذ إنَّ تحقيق هذه الغاية سوفَ يقود إلى تحرير المسلمين وتجددهم الحضاري(٢٤).

ولكن هذا الهدف المركزي يظل بعيداً ويحتاج قطع المسافة إليه الكثير من الجهد والاستنفار، بما في ذلك استخدام بعض الضغط إذا اقتضى الأمر على الدولة العثمانية. ونرى **العروة الوثقى** في ذلك تلوّح بالثورة المهدية ذاتها؛ وهو تلويح يغمز من طرفها بتحسب حتّى تتدارك الأمور. وفي هذا الاتجاه تكتب **العروة الوثقى** في مقالة تحت عنوان «صدى دعوة السودان»، أن هناك اضطراباً عظيماً بين مسلمي بخارى «عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول، وظهر فيهم داعٍ جديد يحثّ على الحرب ومقاتلة الذين ينهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم، ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلعه من مغرسه إذا لم ينتشر اللواء الأخضر»(٢٥).

ولا يقف الأمر عند هذا، بل يصل إلى المماثلة بين الثورة المهدية والحشد الإسلامي في ظلّ الحروب الصليبية، إذ إنَّ «دعوى المهدية في السودان لهذه الأوقات التي صدم المسلمين فيها أشباه الحوادث الماضية في القرن الخامس والسادس من الهجرة، ستدعو إلى حركة عامة يطيح فيها الشرقي بالغربي»(٢٦).

وعبر هذه الرؤية يستوعب المفهوم الاستقلالي للثورة المهدية ويندرج في ما أعلنته الثورة من أهداف تحرير العالم الإسلامي، وربما وفرت بذلك لخطاب **العروة**

---

(٢٤) للمزيد، انظر: هشام شرابي، **المثقفون العرب والغرب: عصر النهضة، ١٨٧٥ ـ ١٩١٤**، ط ٢ (بيروت: دار النهار، ١٩٧٨)، ص ٥٢ ـ ٦٣.

(٢٥) المقصود باللواء الأخضر هو رفع راية المغالبة ومصادمة المعتدي على المسلمين، انظر: الأفغاني وعبده، المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

**الوثقى** التطرق إلى البعد الاستقلالي الوطني حتّى لا تدخل في طرح فكرة الانسلاخ عن مصر والدولة العثمانية.

وإن وردت هذا المورد، فإنها سوف تتناقض مع كونها ـ أي **العروة الوثقى** ـ قد ناهضت إلحاح بريطانيا بإخلاء السودان من السلطة والدولة التي كانت قائمة، لتهيئة «البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم في وقت من الأوقات. . لسبب من الأسباب التي لا يعجزون في اختراعها متى شاءوا»، و«تريد حكومة إنكلترا إذا عارضتها الدول في السيادة على مصر أن تنشئ لها سلطة في الخرطوم يمتد حكمها إلى جميع أراضي السودان». وهنا تكون بريطانيا قد أحاطت إحاطة السوار بالمعصم، من الشمال قبرص ومن الغرب إلى الشرق في السودان، وتحكمت في منابع النيل وتصرفت في أعلاه، وأخذت كُلّ طريق منه الاستيلاء على الديار المصرية»[٢٧].

وصدقت هذه النبوءة، إذ سيطرت بريطانيا على مصر بالفعل قبل أن تستعمر السودان، وأخذ الصراع في وادي النيل تداخلاً عضوياً عميقاً بين المسألة السودانية والمسألة المصرية لأكثر من خمسين عاماً.

وعلى الرغم من تغافل مصير السودان بعد حصار الخرطوم الذي واكبته **العروة الوثقى**، إلا أنها خلت من أي إشارات صريحة بعودة الحكم المصري إلى السودان، بل كان التركيز على مصير مصر بلا منازع في ظروف المدّ المهدوي.

وغني عن القول، إن الدور العثماني في مصر والسودان قد أخذ يتلاشى من الناحية الفعلية منذُ مدة، بفعل ضعف المركز الدولي لخلافة آل عثمان، وتوازنات القوى التي كانت تعمل بالضد من رغائبية **العروة الوثقى** في كبح جماح بريطانيا بصحوة تعيد الأمور إلى نصابها، فقد كانت أوروبا تعيد رسم خريطة العالم في ظلّ توقف حروبها العامة خلال سلام المائة عام الذي تمت فيه صفقات استعمارية كبرى خاصة في أعقاب معاهدتي «سان ستيفانو» و«برلين» عام ١٨٧٨، واللتان طويتا الصفحة الأوروبية من المسألة الشرقية. وعلى أثرهما أطلقت يد بريطانيا في أفريقيا، وفقدت الدولة العثمانية أراضيها في البلقان، وتحولت روسيا نحو أفغانستان وإيران، واندفعت صوب الشرق الأقصى[٢٨].

وبشكل عام فقد تأثرت تقديرات الاتجاه الإصلاحي بشأن المستقبل السياسي

---

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٢٨) George W. Southgate, *A Shorter European History, 1756-1943* (London: J. M. Dent and Sons Ltd., 1944), pp. 137-142.

للعالم الإسلامي بأوضاع الظاهرة الاستعمارية، فقد ظنت تلك التقديرات واستناداً إلى آثار الثورة المهدية، حينذاك أن الأوضاع سوف لن تبقى على حالها، وأن طفرة ستحقق للقضاء على الاستعمار.

لقد كان زخم الثورة الصناعية وقوى الرأسمالية الصاعدة تحرك تلك الظاهرة للمزيد من العمل لفتح الأسواق والحصول على المواد الخام. لذا كانت هذه العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عصر بحبوحة وازدهار تلك الظاهرة. كما إنَّ العالم خلال الفترة المعنية لم يكن قد انتهى إلى تقسيم نهائي للنفوذ الاستعماري، والذي استغرق مدة من الوقت امتدت إلى بداية القرن العشرين.

واعتماداً على هذه العوامل تأثرت ثوابت التحليل الإصلاحي، فضلاً عن نتائج المرحلة الاستعمارية التي لم تكن قد استقرّت تماماً سواء في الإطار الثقافي أو التربوي أو الاقتصادي، أو في الهياكل والبنى المؤسسية، وبالتالي فإن نمو القوى الاجتماعية القادرة على تحقيق انتظام مكافئ في صفوف الشعوب المستعمرة في الشرق، لم يكن قد بلغ مستوى إثبات الذات والدخول في معركة جدية إلا في وقت متأخر[٢٩].

ولئن أصابت **العروة الوثقى** في قراءتها لمطالع الأمور، فإنه لم يفتّ عليها تلمس فرص الثورة المهدية في الانتشار والبقاء بحكم أنها ليست حركة فئوية وإصلاحية يسهل ثنيها أو إجهاضها، فهي تتسم بقوة اليقين والجود بالنفس وإظهار البطولة بين جموع شعبية واسعة ومتحمسة، وعليه فإن «عاقبة الثورة السودانية أشدّ خطراً من عاقبة الحركة التي سموها عرابية»، و«شتان بين هذه الفتنة وبين التي يسمونها فتنة عرابية»[٣٠].

ومرة ثانية يأتي الحديث عن المهدية بلغة تحذير الدولة العثمانية التي أعطت بفرمانها[٣١] عن عصيان عرابي، غطاء لتصفية الثورة العرابية، إذ ترى **العروة الوثقى** أن أمراً من هذا لم يكن يصلح لتطويق الثورة المهدية.

فقد تنامت تلك الثورة على الرغم من إصدار السلطان عبد الحميد منشوراً يكذب فيه الدعوة، وقد وزع المنشور في الأقطار الإسلامية كافة، وكذلك أفتى علماء الأزهر في الاتجاه نفسه[٣٢].

---

(٢٩) بكري خليل، **الفكر القومي وقضايا التجدد الحضاري: بحوث ومناقشات** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤)، ص ٧٦.

(٣٠) الأفغاني وعبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، ص ٢٤٣.

(٣١) انظر: شلبي، **الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته**، ص ١٢٨.

(٣٢) عبد الوهاب أحمد عبد الرحمن، **توشكي** (الخرطوم: دار جامعة الخرطوم، ١٩٧٩)، ص ٢٢ ـ ٢٣.

وأياً كان، فإن المشروع الإصلاحي قد تميّز بنظرته الاستباقية في إدراك الطاقات الحضارية المدخرة لدى الشعوب الإسلامية متى ما عاد الوعي الذاتي لها وعبأت قدراتها إلى النهوض والانعتاق.

وفي هذا السبيل جاءت النظرة المستقبلية **للعروة الوثقى** وثيقة الصلة بالإمكانات المتاحة للكفاح القومي في ذلك الزمان من أدوات التحليل النظري، من دون إطلالها الكامل على خوافي المؤامرات والسياسات الطامعة التي كانت تدبر في أروقة السياسة الدولية، والتي كانت تصل أحياناً إلى قيام اتفاقيات سرية كاملة تقرر مصير ملايين البشر.

وإن كانت التصورات التي أتينا عليها تترجم اهتمام الإصلاحيين بالثورة المهدية، فمن المفيد إلقاء نظرة على خطاب المناصرة التي وجهته **العروة الوثقى**، والتعرف على محتوى رسائلها عبر مفرداتها ومصطلحاتها التي عبرت عن مشاغلها في لجة الأحداث التي طغت على الظروف الفاصلة في تاريخ الفكر الإصلاحي.

## رابعاً: دلالات الخطاب التعبوي السياسية والفكرية

أظهر خطاب **العروة الوثقى** بشأن المهدية مستويين من الدلالات، **الأول** ويحمل معاني التأييد والنصرة، **يقابله** التوجس والحذر والخشية من الانتشار.

ويثير هذان المستويان جملة من الأسئلة عن فحوى موقف المجلة ودوافع القائمين عليها في التعبير بهذه الكيفية وبخاصة أنه لا يغيب عن فطنة قرائها أنهم كانوا يعنون ما يقولون، ويريدون إيصاله على أوسع نطاق.

وقبل الدخول في تقديم الأجوبة، يحسن بنا إلقاء بعض الضوء على مفردات ذلك الخطاب ثُمّ تقديم عرض مختصر عن أبعاد الموقف من الثورة المهدية فكرياً وسياسياً.

وإن عدنا إلى أعم تلك المفردات نجدها وقد اتصلت بثلاثة جوانب:

**١ ـ ويتصل بشخصية المهدي**، وفي هذا المجال حرصت **العروة الوثقى** على إيراد اسم المهدي مجرداً من دون إقرار بمهديته، أو أي إعلاء من شأنه باستخدام ألقاب الدعوة السائدة مثل المهدي أو الإمام، وهذا هو الغالب في ما أتت عليه المجلة. وفي مرات قليلة يردّ مصطلح (الشيخ محمد أحمد)، كما يتردد اسم «القائم» أو الداعي، وهما كما يتضح تعبيران ارتبطا بتاريخ الحركات الدعوية في الإسلام.

وليس في ما استخدم من عبارات ما يدلنا على الاعتقاد في مهدية محمد أحمد.

ولكن بالمقابل لا نجد أثراً لمصطلحات تفيد الطعن أو التقليل من شخصية المهدي مثل «محمّد أحمد الدنقلاوي»، أو محمد أحمد المتمهدي، كما إنَّ استخدام كلمة المدعي قد تمّ نادراً ومن دون توصيف تقليلي.

أما أنصار المهدي فقد اصطلح على تسميتهم الأتباع والدعاة والمعتقدين والعرب والعربان والثائرين وثائرة السودان، مع الابتعاد عن إطلاق اسم «الدراويش» عليهم، كما درجت عليها الجهات الرسميّة المعادية لوصفهم بالجهل والهوس الدينيّ.

والحق يقال فإن **العروة الوثقى** قد أشادت بذكاء المهدي وحسن تدبيره وحنكته السياسية وحسن معاملته لأهل الكتاب(٣٣).

٢ ـ **وهو الخاص بالتسميات المتعلقة بالثورة المهدية**، ويندرج فيه عدد من المصطلحات في مقدمتها «الدعوة» وهي كلمة وصفية ومحايدة وليست تقويمية، كما استخدمت عبارات «دعوى مهدوية» و«الحركات السودانية» و«الثورة السودانية»، وهي ذات مدلولات مختلفة لا تنال من الثورة.

ومع ذلك فقد وردت في المجلة كلمة «فتنة» في مواضع عدة، وقد جاءت في سياق التحذير من امتداد المهدية إلى مصر بصفة خاصة وإلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي بصفة عامة. ونجد تلك المفردة وقد أردفت بمعنى الحادث الجلل أو الخلاف الكبير أو النازلة والمصيبة، أو الشقاق والفرقة.. إلخ، وكلها تفيد جسامة الحدث وعظم آثاره.

ومهما كان، فقد أبدت **العروة الوثقى** تقديرها وإعجابها بالثورة المهدية بصورة واضحة. ومثال على ذلك قولها «ما كان يحوم في خيال أن قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية في أعلى السودان، وبعد إرغامه للإنكليز مرات ومرات يحرك قلوب الهنديين ويوقظ نائمهم»(٣٤).

٣ ـ **في خصائص الثورة المهدية**، لم تتوقف **العروة الوثقى** كثيراً عند تعداد مميزات الثورة المهدية بقدر اهتمامها بالأشواط التي قطعتها، وإبراز سرعة انتقالها ووقعها على قلوب المسلمين. وباختصار فقد ربطتها بالذود عن الدين والحمى وصنفتها مع العمل الشريف الذي يستدعي نصرته.

أما أكثر ما لفت نظرها فهو تبديدها لأوهام قوة الإنكليز وما أحاطها من

---

(٣٣) الأفغاني وعبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، ص ٢٠٤.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

أساطير، فدعت إلى ضرورة التأمل في ما تحقق من نصر على آلتها العسكرية، وفي روح الفداء التي تناقلت صورتها الأخبار والرواة بأن «العرب أظهروا من البسالة والشجاعة ما لا يوصف»، و«أن ما شاهدوه منهم يعدّ من غرائب الأعمال البشرية»[٣٥].

وينم ما تقدم عن وعي قادة الإصلاح لدور المهدية في تحريك العمق الروحي لمقاومة إخضاع الشعوب وحفز المسلمين إلى العودة للأصول، وتوحيد الجهود لمقاومة الغزو الأجنبي وهي الشعارات ذاتها التي رفعتها **العروة الوثقى**.

وتعيد المجلة الثبات والشجاعة التي لازمت الثورة المهدية إلى اليقين أو قوة الإيمان أو إلى تحكم الجهل في المواجهة العسكرية. غير أنها تتطرق إلى أن الاعتقاد في المهدي ضرورة حتّى «لو كان دجالاً لأوجبت علينا أن نعتقده مهدياً وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده»[٣٦]. ويجري الكلام على لسان أحد الأصدقاء الذين راسلوها من مدينة لاهور، وبالطبع فإنه لم يكن بلسان المقالة وإنّما بلسان حال تأييد هذا الرأي. ودليلنا في ما ذهبنا إليه أنها تكرر الفكرة نفسها في موضع آخر، إذ تشير إلى «أن لدعوة محمد أحمد في قلوب الهنديين منزلة، وأنه لو لم يكن مهدياً فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك، عسى أن يكون في هذا الاعتقاد جمع لكلمتهم على التخلص من رق الإنكليز»[٣٧]. وهذه الضرورة بلا شكّ هي الحاجة إلى التحرر. ولكن تلك الضرورة ينبغي وعيها بما يؤدي إلى تجنب الفتنة، بأن تصدع بريطانيا وتنتبه لدواعي الخطر الذي تمثله عواقب الحركة المهدية، والتي هي أشدّ خطراً من حركة عرابي كما أسلفنا.

والحل الذي تراه **العروة الوثقى** هو في تسلم العثمانيين لدورهم في تطويق الفتنة وإخمادها، لأن الحكومات الإسلامية وحدها هي القادرة عل تسكينها، إذ «لا يكافئ دعوة إسلامية إلا عزم إسلامي، ولن يكافح هذا المدعي ويرده إلى قدره إلا رجال مسلمون يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها»[٣٨].

وإذا دل هذا الاستعراض على مثول نوع من المفارقة بين تبني الثورة المهدية ومطالبها، وبين التحسب لها والقلق منها، فما هي الحدود التي رسمتها **العروة الوثقى** في مخيلتها لمسار تلك الثورة، وما هو مصدر تلك الرؤية المزدوجة لمهامها وآفاقها؟

---

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

## خامساً: الثورة المهدية: إشكالية التصور الإصلاحي للعروة الوثقى

يتقاسم الفكر الإصلاحي والثورة المهدية أهدافاً مشتركة في إطار تغيير أوضاع العالم الإسلامي، فكلاهما يروم العودة إلى الإسلام في نقائه الأول والتمسك بالأصول المتمثلة في الكتاب والسنة.

وفي ذلك يرى الإصلاحيون أن العلاج الناجع لأوضاع الأمة «إنّما يكون رجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته»[٣٩]. أما المهدية فتذهب إلى أنها تسير على هدى نور الله وتأييد رسول الله(ﷺ)؛ وأن أمامها «موعود بأن يرفع المذاهب ويطهر الأرض من الخلاف، ويعمل بالسنّة حتّى لا يبقى إلا الدين الخالص»[٤٠].

ولما كان من المفروغ منه أن كلاً من الإصلاحيين والثورة المهدية متفقان على الأساس الإيماني والتوحيدي لإعلاء شأن الدين ومحاربة الفساد والانحلال، اللذين أصابا واقع المسلمين، فإنهما قد دعيا إلى العدل ومحاربة العادات السيئة والمعتقدات الفاسدة، وإعادة قوة الإسلام ومجده وإحياء الدين كما كان في عصره الذهبي.

غير أن المنهج الفكري والتكوين الثقافي والأهداف السياسية تتباين بين الإصلاحيين والثورة المهدية، فالأولون يعتمدون تفكيراً عقلانياً يقوم على التأليف بين معارف العصر ونظمه ومؤسساته الحديثة، وبين حقائق الدين؛ بينما تنطلق الثانية من النزعة الصوفية والتفكير السلفي والمنهج الاستعادي الكامل والاجتهاد في إطار التمسك بالأصول[٤١].

ومن الناحية العملية لم تكن هناك صلة بين الإصلاحيين والثورة المهدية، وإن كان بعض المثقفين المصريين قد تجاوبوا مع المهدية وانضوى نفرٌ منهم إليها بعد فشل الثورة العرابية[٤٢]. كما لا يستبعد أن يكون لهؤلاء نظرائهم في السودان الذين أطلعوا على أفكار الأفغاني ومحمد عبده، من خلال الوسائل المتاحة في ذلك الوقت ولا سيما أن السودان كان جزءاً من وحدة مصر السياسية.

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٤٠) محمد إبراهيم أبو سليم، **الحركة الفكرية في المهدية** (الخرطوم: جامعة الخرطوم، قسم التأليف والترجمة، ١٩٧٠)، ص ٤٦.

(٤١) انظر: سلاطين باشا، **السيف والنار في السودان** (أم درمان: مكتبة الحرية، ١٩٣٠)، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤٢) عبد الرحمن، **توشكي**، ص ٢٤.

أما من حيثُ الأسلوب، فقد اتبعت المهدية طريق العمل المسلح كأسلوب غالب وجذري، بينما اعتمد الإصلاحيون وسيلة التثقيف والتعبئة السلمية وتكوين الأطر تربوياً وفكرياً باتجاه مقاصدهم في ربط المعركة ضدّ الاستعمار بنشر الوعي، وإشاعة المبادئ السياسية المستهدية بالقيم والتراث الإسلامي وروح العصر.

وعندما برزت الثورة المهدية توسم فيها هؤلاء ومن خلال **العروة الوثقى** فضائل الجهاد واستقطاب الرفض الصامت في صفوف الشعوب الإسلامية ضدّ الغزو الاستعماري، وتوقعوا اشتعال الثورة في الهند درة التاج البريطاني، وفي مصر واسطة عقد العالم الإسلامي.

وكان تصديق أمر المهدية، أي التحقق من ظهور مهدي آخر الزمان أو تكذيبه، هو نقطة البداية في مختلف المواقف التي تحدد صيغة التعامل مع ذلك الحدث الداوي. ومن هنا تفاوتت التعبيرات كناية عن تفاوت منظورات الدولة العثمانية والسلطة الخديوية وعلماء الدين في مصر والسودان قياساً لغيرهم»[٤٣].

فبينما قطع هؤلاء بتكذيب ودحض مهدوية محمد أحمد استناداً إلى عدم توافر العلامات الدالة على ظهوره بحسب الأحاديث التي رويت بهذا الخصوص[٤٤]، لم تصرح **العروة الوثقى** برأي حاسم، واكتفت بالتلميح إلى المفردات التي أتينا عليها سابقاً، وبما يفيد الشكّ وعدم الإقرار من دون الاستنكار والرفض الصريح.

ونجد أن **العروة الوثقى** تتناول الموضوع من زوايا مختلفة أهمها نجاحات الحركة المهدية وخصائصها أكثر من الدوران حول صحتها أو فوزها النهائي، وتقول عن المهدي «سواء كان صادقاً في دعواه أو كاذباً، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الأرض سوداناً كان أو مصراً أو غيرها من البلدان، إلا بتقدمه إلى ما ورائها حتّى يُعلي كلمة دينه ويرد إلى الحقّ من انحرف عنه» «وسواء يسّر الله النجاح في ذلك أو باء بضده، هذا لا كلام لنا فيه الآن، ولكنا نتحدث في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوة العظيمة»[٤٥].

---

(٤٣) انظر: أبو سليم، **الحركة الفكرية في المهدية**، ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٤٤) انتشرت الأحاديث النبوية التي وردت في المهدي وحصرها ابن حجر العسقلاني في أربعين حديثاً. ومن العلامات الدالة عليه أن اسمه يواطئ اسم الرسول (ﷺ) وهو من عترته، وسوف يظهر إما في مكة أو المدينة أو جبل ماسة بالمغرب، وعلى خده الأيمن خالاً، كما إنه يظهر في شهر رمضان. وقد استفاض محي الدين ابن عربي في وصف المهدي المنتظر، وذكر بأن علم قدومه كعلم الساعة لا يعلمه إلا الله، وهو يظهر الدين ويدعو إلى الله بالسيف ويبيد الظلم وأهله، فمن أبى دعوته قتل ومن نازعه خذل، للمزيد من التفاصيل، انظر: محي الدين بن عربي، **الفتوحات المكية** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ج ٣، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٣.

(٤٥) الأفغاني وعبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، ص ٢١٩.

ومن الواضح أن فهم ذلك الاتجاه الإصلاحي للثورة المهدية بأنها ذات طاقة روحية كبيرة، من شأنها تحريك المسلمين بقوة نحو طريق الخلاص من المظالم والانحرافات، فتركز اهتمامها على القيمة السياسية والوظيفية والدور الكفاحي الذي من شأنه أن تلعبه. ورأى جمال الدين الأفغاني في مفهوم المهدية أنها مرتبطة بتصور المسلمين عن المنقذ، فالمسلمون «دائماً يحلمون بظهور شخصية مهدوية، يلتفون حول مخلص يقودهم إلى بناء دولة إمبراطورية بالرغم من أن كُلّ من أدعوا المهدية في الماضي مرفوضون من الناحية الدينيّة، لأنه لم تصاحب حضوره العلامات المقررة»[٤٦]، ويضيف «أنّه مهما اختلفت المعتقدات من ناحية الشكل، فإن كُلّ مسلم ينتظر مهدياً وأنه على استعداد لأن يتبعه وأن يضحي بحياته»، «وأن هيبة المهدي في نظر المسلمين سوف تتوقف على ما يمكن أن يحققه من نجاح نهائي»[٤٧].

ومما سبق يستفاد أن الحركة الإصلاحية قد تحفظت في الدخول إلى مجال الجدل مع طروحات المهدية ودعواها الدينيّة، وظلت ثابتة على دعمها معنوياً وعوّلت على مكاسبها في مقاومة الاستعمار، ولم تعمل على النيل منها.

وتشير **العروة الوثقى** في موضع ملفت للنظر أن السلطان راضٍ عن أعمال محمد أحمد، بل إن هناك تنبيهات قد صدرت «إلى جميع المؤمنين في تلك الأطراف (ويقصد بها منطقة دنقلة في السودان)، أن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الإنجليز في منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة الآيسين»[٤٨].

وبالطبع لم يكن هناك شيء من هذا قد حدث في الواقع، بل على العكس فقد أصدر السلطان منشوراً مناوئاً للمهدية كما ألمحنا إليه، وأصدر العلماء فتاوى تكذيب للمهدية، وعدّها خروجاً عن الطاعة وذلك بإيعاز من السلطان عبد الحميد والخديوي توفيق.

وتبقى هذه النقطة مثار تساؤل عن إلمام **العروة الوثقى** بخطاب الثورة المهدية، فقد كانت منشورات المهدية مليئة بقدح الحكم التركي، وما فتئت تكفره وتفضح مفاسده وتدعو إلى محاربته، وتخليص العباد من شروره، فالمهدي يشير إلى أن «الجهاد الذي حصل للترك فإنه من رسول الله (ﷺ)، وقد أخبر أن الترك لا

---

(٤٦) نشر جمال الدين الأفغاني في صحيفة **الأنترانسجان** الفرنسية مقالاً من ثلاثة أجزاء تحت عنوان «المهدي»، وذلك في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٣م، جاء فيه النصّ المشار إليه. انظر: لويس عوض، **تاريخ الفكر المصري الحديث: من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩** (القاهرة: مكتبة مدبولي، [١٩٨٥])، ص ١٨٦.

(٤٧) عوض، المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٤٨) الأفغاني وعبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، ص ١٤٧.

تطهرهم المواعظ بل لا يطهرهم إلا السيف، إلا من تداركه الله بلطفه»[٤٩].

ومع استبعادنا أن الأفغاني وعبده لم يطلعا على ما أصدره السلطان عبد الحميد بشأن المهدية، إلا أننا نرجح أنهما قد قصدا إغفال هذا الموضوع بعدم التطرق إليه في **العروة الوثقى** انسجاماً مع خطابها التعبوي المؤسس على التحريض وحث المسلمين على الثورة بوجه الإنكليز، وفوق هذا دعوتها للالتفاف حول الدولة العثمانية، والحرص على إظهار مكانتها بما يخدم تعزيز قيادتها لوحدة المسلمين.

وسواء كان الأفغاني وعبده يتعاطفان مع المهدي كبطل ثورة استقلالية أم لا، وهو أمر محكوم بمفاهيمها التي ارتبطت بإيقاف تداعي الانشطارات وتمزق الدولة العثمانية، فإنهما نظراً إلى المهدية ضمن منظور عملي كخطوة إلى الإمام لغرض التراجع عن المخططات الأجنبية وانتشال المسلمين والشرق من كبوتهم.

وإذا كان هذا التصور صحيحاً، فما الذي حمل **العروة الوثقى** على تجسيم خطر المهدية وثورتها في السودان؟ وهل كان الترويج لها وفي الوقت نفسه التحذير منها أمر وقتياً أو موقفاً تكتيكياً اقتضته الظروف؟

تلك هي علامات الاستفهام التي يتوقف عندها كُلّ قارئ **للعروة الوثقى**، ذلك أن خطابها يبدو متناقضاً وإشكالياً وحمالة أوجه، لأنه ينادي بهبة إسلامية تنقل عدوى التحرك الشعبي على غرار المهدية، وأخرى ترى في تطورها طامة كبرى وناراً لا بُدَّ من إطفائها[٥٠].

وأخذاً باعتبارات تلك المرحلة، فإن الثورة المهدية لم تكن قد أخذت صورتها النهائية، فقد كانت تقف على مشارف الانتصار ولم تكن ملامح مشروعها الإسلامي خارج السودان قد ظهرت، على الرغم من دعوتها إلى التوجه نحو الجزيرة العربية ومصر والشام.

وفي مثل هذه الظروف يكون طبيعياً أن يأتي خطاب **العروة الوثقى** متراوحاً بين العرض الإيجابي من جهة، وتوضيح التوقعات التي تثير مخاوفها أو تلك التي تريد هي أن تثير بها المخاوف لأغراض في نفسها.

وقد كانت هناك مراهنة على تكرار صدمات مماثلة لتلك التي أحدثتها المهدية، حتّى تستفيق الدولة العثمانية وتستجمع قواها، وبخاصة في مصر، إذ يجري الإعداد

---

(٤٩) رسالة من المهدي إلى الشيخ محمد الأمين الضرير في ١٥/ ٧/ ١٨٨٢م، نقلاً عن: أبو سليم، **الحركة الفكرية في المهدية**، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٥٠) الأفغاني وعبده، المصدر نفسه، ص ١٨٩ و١٩٤.

على قدم وساق لفرض وصاية كاملة عليها، ويتم الشروع في تسريح جيشها، فكان دور المجلة أن تلح في التنبيه لجسامة الموقف الذي تزيد المهدية في حراجته، فهي تحث العثمانيين مستصرخة أنّه حان «الوقت الذي يتمكنون فيه من إعادة سلطتهم في القطر المصري إلى أعالي السودان، وفي ذلك صيانة ممالكهم من العدوان، ولا يرضى بفوات هذه الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت وألقى بها إلى التهلكة»(٥١).

ويتبادر إلى الذهن أن التلويح بالمهددات ربما ارتبط بتشجيع خفي للبحث عن تسوية مع ثورة السودان، وإلا كيف يمكن فهم تلك اللغة المفعمة بنداء الاستغاثة وكأنه النداء الأخير، ولا سيما حينما يكون الأمر متعلقاً بإعادة السلطة في السودان والتي كانت قد انتقلت فعلياً إلى يد الثورة المهدية.

هذا الخطاب الذي ينطوي على التحذير والتنبيه، كان موجهاً إلى الرأي العام الإسلامي والدولة العثمانية بالدرجة الأولى، على عكس ما ذهب إليه د. لويس عوض الذي يرى أنّه كان «لإقناع الرأي العام الأوروبي بضرورة تفاهم أوروبا مع العالم الإسلامي اتقاء لخطر المهدي الذي يتهدد السيادة العثمانية من جهة، والنفوذ الأوروبي من جهة أخرى»(٥٢).

ومع أن الحديث عن خطر المهدية يسوق معه تشجيع احتوائها أو حتّى قمعها إذا دعا الحال، فإن إعادة مثل هذه الإجراءات أو السياسات قد رُبطت بالجهد الإسلامي كما يردّ في **العروة الوثقى**، إذ تقول «نظن أن لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه والدخول إليه من بابه وتركه للمسلمين يرضي بعضهم بعضاً ويدافع بأسهم بأس بعض»(٥٣).

والثابت في ظلّ اللغط الذي أثارته المهدية في أوساط المفكرين والساسة هناك، فإن رواد الإصلاح الذين نحن بصددهم قد رفضوا صيغة التدخل الأجنبي من أساسه، ناهيك عن اعتماد ذلك خياراً في مواجهة المهدية. إذ «ليس لكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين يلقي إليهم زمام العمل فيها خالصاً من المداخلات الأجنبية التي توغر الصدور وتثير الأحقاد»(٥٤).

ومن هذا الباب أيضاً يجري التنبيه إلى خطر آخر هو تورط العثمانيين إن سقطت

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ٤١٣.

(٥٢) عوض، **تاريخ الفكر المصري الحديث: من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩**، ص ١٨٧.

(٥٣) الأفغاني وعبده، المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

الخرطوم في مغامرة التدخل لاستعادة الأوضاع، «يزيد الطين بله أن يشتد العثمانيون ويأخذوا بالحزم وقوة العزم»[٥٥]. وفي موضع آخر أكثر وضوحاً تحذر **العروة الوثقى** من مكيدة بريطانيا لجر العثمانيين لحملهم «على الحكم بعصيان المهدي ليحولوا القلوب عنه»[٥٦]، كما حدث لأحمد عرابي، ثُمّ تضيف «كما إنّه يشبه المحال أن عثمانياً يجوِّز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله وعساكر الإنكليز في القاهرة»[٥٧].

وتلك النصوص التي أوردنا، أمثلة لها تكاد تستنطق المناقشات والحوارات التي برزت على إثر المهدية في الأروقة المصرية، بل تنقل مختلف الآراء والأفكار بصوتٍ عالٍ، وتحاول أن تعرض محاورها من دون أن تتمكن من أن تقول الكلمة الأخيرة بوضوح في أحداثٍ طرية ووقائع حية، ما زالت تلقي بحممها على أطراف البركان.

والثورة المهدية قدمت نفسها وكأنها لا تبقى ولا تذر في عالم ذلك اليوم الذي كان يعيش لحظة الانتقال من الانحطاط والركود، إلى التجدد ودخول العصر الحديث. وأصبحت حالة المهدية كالسيل الذي يجرف بطبيعته ما يعترضه، فشقت طريقها وهي تنادي ببناء التجربة على أرضية التراث، وكذلك على أنقاض ما كان قائماً من هياكل الدولة الحديثة التي جاءت بتداعيات نهوض مصر ومشروع محمد علي، بعد قيام الدولة في السودان.

وكان لهذه التطورات إسقاطاتها ومخاوفها على الوضع في مصر، ما أطلق العنان لشتى الاحتمالات لزعزعة الأمن والسلم الاجتماعي في مصر، فيما إذا تقدمت إليها جيوش المهدية.

إن **العروة الوثقى** لا تتخذ من فصول أحداث السودان مثالاً لما ينبغي أن تكون عليها المقاومة في مصر، فثمة مرتكزات وبيئة ثقافية تشكل التفاعلات هناك مع حركة الواقع من حولها، فها هي تقارن انعكاس المهدية على «بخارى» في أواسط آسيا من دون أن يماثل الاضطراب الذي وقع هناك ما يناظره في بلاد هي «أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها منالاً»، والمقصود بذلك هو مصر. ولهذا فإن المجلة تخصها بالإشارة قائلة «يغلب الظن أن الروح هبطت إليها ولكن بتحرك بحركة العقل وتنمو على القوانين والشرائع السياسية والاعتقادية»، وتضيف «فلا يشعر

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

الأقوياء إلا وقد بات بحلاقيمهم المستضعفون، والأرض أرض الله يورثه من يشاء من عباده الصالحين»[٥٨].

وبعبارات أخرى إن التعبير عن المقاومة التي تعتمل في العقول، سيتخذ أسلوباً مختلفاً يرتبط بمستوى التطور الاجتماعي والسياسي والفكري في مصر، وينطوي على صراع عميق لا بُدَّ أن يعطي نتائجه لحسم المعركة بين الشعب ومستغليه، وتتم التحولات على نحو مختلف.

الإصلاحيون إذاً لا يطرحون نمطاً وأنموذجاً واحداً للمقاومة والتقدم نحو النهضة والتحرير، وبالتالي فإنهم يؤكدون على جوهر الكفاح التحرري وتعدد أشكاله وألوانه، وهكذا يمكننا فهم النزعة النقدية لآثار المهدية وما انتهجته من أساليب في ما بدا من هواجس تحف بوقعها على مصر بالذات.

وخطاب **مجلة التيار الإصلاحي**، من هذه الزاوية قلق ويتوقع انفجار الوضع واضطراب الأحوال وتصدع الدولة المصرية إن انفرطت الأمور. وهذا أمر لا يحمد عقباه لسبب آخر، وهو وجود من يهتبل الفرص ويحكم السيطرة ويعمل على توطيد تواجده في وادي النيل، لينتهي بذلك إلى تحطيم الدولة العليّة في نهاية الأمر.

الإمساك بتلك الشعرة الرفيعة، ووضعها فاصلاً بين الفتنة والثورة، كان يعني أن تحافظ المهدية على مقاومة بريطانيا ولا تخرج أو تحيد عن ذلك الطريق، وحينما يتم التلويح بالمهدية لإثارة المسلمين للضغط على بريطانيا، يتحقق حملها على التسوية، ومنعها من أن تستولي على مزيد من ديار الإسلام.

ومن البديهي أن يكون مثل هذا الطلب عزيزاً في ظروف الثورات التي يوجهها منطقها وآلياتها الخاصة في أطوار بطولتها واندفاعها، وهكذا اجتمعت لخطاب العروة الوثقى التعبوي إشكالية التوافق مع تلك المرحلة ووزن خطها على إيقاع المتغيرات المتسارعة التي كانت تجري. ومهما كان فقد سعت **العروة الوثقى** إلى توفير عنصرين في متابعة الثورة المهدية.

**الأول**، وهو التعامل الواقعي مع ظاهرة المهدية على أساس ما كانت تقدمه من انتصارات في الصمود والمدافعة، وذلك ما عده الأفغاني محكاً لصدق أية دعوة مهدوية وهو ما كان متحققاً.

**والثاني**، وهو اللقاء معها أياً كان الرأي في هويتها وسلوكها المباشر، وذلك عن

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

طريق مقاومة التدخل الاستعماري ومقتضيات تصحيح أوضاع العالم الإسلامي وانتشاله من مهاوي الركود والتخلف.

## خاتمة

في ثنايا خطاب **العروة الوثقى** التي أفردت للثورة المهدية مساحة مقدرة، تتداخل مظاهر التأييد والحفاوة المضمرة بالتحفظ والحيطة، إزاء تجربة كانت علاماتها الفكرية مطبوعة بخطاب تراثي جذري لم يتوافر له جو المناظرة والحوار، بل فرص الأخذ والعطاء مع المحيط الثقافي من حوله.

ومن هنا كان تجلي عقيدة المهدية في حلّتها الجديدة الجهادية المقاتلة، يعطي أبعاداً أكثر تفصيلاً وتجسيداً لما تواتر عن مفهوم المهدية في الإسلام، ما وضع الثورة المهدية ومنطلقاتها أمام أسئلة متشعبة تتطلب تعليلاً للظاهرة ونجاعة حلولها، وفوق كُلّ هذا وذاك، اتساقها مع منطق العصر وأنماط الفكر الدينيّ والمؤسسات السائدة المتصلة به.

لذا كان الانتصاف للمهدية بالنسبة إلى الاتجاه الإصلاحي موقفاً دقيقاً، فالمهدية أصبحت حقيقة قائمة في المستوى النضالي، وكذلك في ما تمخض عنها من نتائج، وأصبح تجاهلها أمراً مستحيلاً. لكن المسألة التي كانت أكثر صعوبة هي كيفية إشاعة فهم إسلامي لماهية الدعوة وأهدافها السياسية والدينية، لما يدرأ عنها الشبهات والنقائض، ويدفع عنها مخاطر التحول إلى قوة شقاق وفرقة وتعقيد للأحوال، بدلاً من أن تلعب دورها لمصلحة جماعة المسلمين.

وكما هو معلوم، فقد أثارت المهدية ردود فعل واسعة تجابهها بحجة البطلان والزيغ والإضرار بوحدة المسلمين، فضلاً عن أن النزعة المهدوية في حدّ ذاتها تظل مثقلة بتداعيات التصورات الخلاصية والمفاهيم الرسالية التي تنطق بالنيابة عن الدين وتتصدى لمسؤولية الكلمة الأخيرة في شأنه، واجتثاث الظلم ونشر العدل في الحياة الدنيا في حلقتها الختامية، أي في آخر الزمان، بل وتخاطر بخوض مشكلات الإمامة والخلافة التي دارت حولها أكثر قضايا الإسلام العقيدي والتاريخي وعُورة واستعصاءً.

الموضوعات الخلافية التي تظل حاضرة كُلَّما وحيثما أثيرت مثل هذه الدعوات، كانت تطالب **العروة الوثقى** بمعالجة متوازنة لتناول الثورة المهدية تناولاً عقلانياً، من دون الانغماس في مشكلات التصديق والتكذيب أو الانجذاب إلى الفتاوى التي كانت شأن السلطة والفقهاء.

وغدا الموقف من المهدية تحدياً للخطاب والتوجه الإصلاحي لـ **العروة الوثقى**، فهو إذ ينتصر للمهدية، كان مطالباً لتقديم معنى التأييد وحدود اللقاء، وإذ يختلف

ويتباين في منطلقاته، كان مطالباً بأن يبدي رأيه بوضوح ويحدد منظوره بقول شاف. وكانت المهدية كحدث حيّ ومتفاعل موضعاً شديد الحساسية والوطأة على ذلك الخطاب.

فقد سعى إلى تلطيف وتخفيف مبررات شرعية الانتفاضة المهدوية اعتماداً على الثقة في أهدافها وفي حقّ الأمة في السيادة والتحرر، ومشروعية العصيان التي تبيح التمرد على أولي الأمر، تحت الضرورات الملجئة لخطّ العودة إلى ينابيع الإسلام الأولى.

ولكن التصور الإصلاحي في ذلك الزمان لم يكن قد قطع رجاءه في أولي الأمر بحيث يتطابق مع المهدية في دعوتها ومسارها، وهي «التي أعلنت عزمها لاستئصال هؤلاء وجزمت بخروجهم عن الملة»(٥٩).

ومهما كان، فإن النظرة الإصلاحية التي ربطت اجتياز منعطف النهضة بالتحرر والتصدي لشبح المسألة الشرقية واحتلال مصر، وجعلت من فكرة الجامعة الإسلامية، راحت تطرق بشدة من خلال **العروة الوثقى** على دور الدولة العثمانية في التدخل، وأخذ زمام الموقف بديلاً للإنكليز، وذلك هو فرصتها المتاحة والذهبية لاستئناف ذلك الدور.

وبدا واضحاً أن حث تركيا يمرّ من خلال الترويج لانتشار الثورة المهدية، والتثقيف بما تمتلكها من قدرات تأثيرية ضخمة على مجرى الأحداث، وتحول هذا الخط إلى لولب ضاغط، وناقوس خطر يدقّ منبهاً وينذر بانفلات الأوضاع وانبعاث الفتن بشر مستطير، فتواتر الأصوات وتفاوت اللهجات، جسد ترددات إيجابية حافزة وتحريضية لصالح مشروع التحرير ودعم الثورة المهدية، كما عبرت عن محاذير متوجسة تخشى من تسارع الأحداث لصالحها. ومرّد هذه اللغة المضطربة هو ذلك القلق الناجم عن طبيعة المرحلة وانعكاس التدخل الأجنبي، وما ترتب عن انكسار الثورة العرابية، والخشية من انفلات الأوضاع وانهيار الدولة في مصر، واهتزاز المؤسسات القائمة والسلم الاجتماعي بما يفيد الاستعمار المتربص ويمكنه من إعادة صياغة تلك الأوضاع بما يحقق مآربه.

كما إنَّ مهمة أخرى كانت تستولي على اهتمام **العروة الوثقى**، وهي الحفاظ على مجال رؤية واضحة لا يحسب فيه خطّ المجلة على أي موقف مناهض للمهدية من جهة، ورصد مسارها بجلاء وتقديم إنجازاتها لأنظار وعقول قرائها بحجم بطولات وتضحيات تلك الثورة، وبأفق الرهان على قوة دفعها من جهة أخرى.

---

(٥٩) عبد الرحمن، **توشكي**، ص ١٨.

أما آمال الصحوة التي تقلب الموازين لمصلحة شعوب الشرق، وتعزز موقع الدولة العثمانية وتجبر سياسة الأطماع البريطانية والغربية على التراجع، فكانت من قبيل استباق زمان الانبعاث النهضوي، ومن قبيل التحليق فوق سقوف الظروف الموضوعية، فانتظام نضالات المسلمين، وتحولها من القوة إلى الفعل، ظلّ حادياً لخطاب الإصلاح، آملاً في تحقيق ذات الأمة عبر جدلية نضالها في صراعها التاريخي ضدّ الاستسلام والتبعية الحضارية.

ولم تكن تلك التفاؤلية سباحة في فضاء الأحلام، وإنّما هي سمة ملازمة للاستشراف الريادي الذي يتقدم كُلّ تراكم لعطاء الشعوب، فبعد عقود من المعاناة وتنكب الأخطار، قطف الشرق بعض ثمار تلك التطلعات المبكرة، وما زال الحبل على الجرار.